استخدام المنهج الانثروبولوجي في الدراسات الانثروبونيمية

د: عباس رضوان[1]

مقدمة:

إن أسماء المدن والقرى والاماكن القديمة والاشخاص، تضرب جذورها في أعماق التاريخ فهي الاكثر بقاء من بين المتغيرات، تحمل إلينا ملامح عديدة اجتماعية، لغوية، سياسية، ثقافية، فدراسة اسم المكان لغويا قد يعطينا معلومات حول تنقلات الشعوب، وأصولهم، غزواتهم ، هجراتهم، من خلال تلك البصمات التي تركوها ، قد يكون هذا الاسم جزاء مهما في تقصي الوقائع التاريخية ولربما سميت بذلك الاسم ، فتسمية المكان ما هو الا شكل من أشكال اللغة، التي من خلالها يستطيع الباحث أن يحدد الفترة الزمنية التي سمي بها المكان لهذا تتضمن أسماء الاماكن معاني ومدلولات متعددة وتعتبر ذات قيمة تاريخية هامة، فهي أقدم من أسماء الاشخاص وتعتبر أحيانا المصدر الوحيد الذي يؤرخ لفترة ما[1] .

لهذا عندما نريد أن نقصد مكانا ما أو بلدة أو مدينة من مدننا فأننا ننطق باسماها للإشارة أو التعيين ،فإن أي اسم له دلالته الخاصة سواء أكانت تشير الى دلالة مادية أو مجردة، يقول سلطان عبد الله ،إن بعض الاسماء ترتبط ارتباط وثيقا بثقافة الناس، على الرغم من أن أصحاب الثقافة يذهبون فإن الاسم يبقى أطول من كل الظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية والاثنية واللغوية[2] ، لذا قد احتفظت بعض المدن على الاسم السامي لها وتغير الاسم في بعضها نتيجة التطور اللغوي والعرقي ،وتغير كليا في مدن أخرى نتيجة دخول الاستعمار اليها، لهذا تعتبر دارسة المواقعية الحالية مهمة جدا لأنها تمثل هوية الانسان الذي استوطن شمال افريقيا ،علما أن هذه المنطقة تحتفظ بشيء قليل من أسماء الأماكن التي تنتمي الى الحضارة الفينيقية، التي تمركزت على طول الساحل التجاري الذي كان يربط قرطاج بإسبانيا، لهذا لم يبقى من بصمات المواقعية ذات الاصل الفينيقي الا القليل[3].

إذن:

[1] - **CNRPAH /CEA : TLEMCEN**

- ما هي حالة تسمية مواقعيه المدن الجزائرية ؟
- كيف يمكننا إجراء دراسة ميدانية لتحري واقع أسماء الشوارع وأحياء المدن وماهي الأليات المنهجية التي علي الباحث أن يتخذها سبيلا للوصول الى البحث عن الهوية المواقعية للمنطقة التي يجري فيها بحثه ؟

لطالما كانت المواقعية محل اهتمام العلماء الفرنسيين الى غاية سنة1870 قاموا بوضع مشروع قواميس خرائطية لكل مقاطعة، حيث أصدر أوغست لونيون (Auguste Longon) الذي يعد المؤسس الاول للمواقعية المنظمة والمنسقة في كتاب له "أسماء أماكن فرنسا" الذي ظهر في سنة1920 وقام باحثون من امثال ألبرت دوزا (Albert D'Auzat) وشارل روستين (Charles Roustang)وأرنست نقغ (Ernest Nagé) بتطوير أعماله[4]، أما في الجزائر فقد ظهرت في منتصف القرن 20 حيث سجلت فقرا كبيرا ولم يباشر أحد في دراسة إجمالية للمواقعية[5]

تعريف الطوبونيميا : "Toponymie"[6] كلمة فرنسية، شتقة من الكلمة الاغريقية "طبو"(Topos) التي تعني "مكان" و "أونوما"(Ōnuma) التي تعني "اسم" بمعنى اسم مكان[7]، حيث يعتبر جزء من منطقة ما وما الاسماء الا رموز من خلالها يشر الانسان الى المكان ويتعرف عليه وينعته بكلمة معينة[8]، كما يتم التعرف عليه بواسطة الاسم الذي يميزه عن باقي المناطق الاخرى أي أنها تساعد على ربط الشخص بأرضه وقبيلته وعائلته ، كل فرد يرتبط باسم ما ومن ثمة يرتبط بمنطقة ما [9]،كأن نقول هذا الانسان جيجلي أي أنه من منطقة جيجل "ولاية جيجل".تهتم الطوبونيميا بدراسة أسماء المواقع الجغرافية وأسماء الاماكن المواقعية والطوبوغرافية التاريخية، وتعني بالبحث في معانيها وتفسيرها ومعرفة تحولاتها على مر العصور، وملامح التغير في أنساقها اللغوية، والطوبونيميا تندرج في اطار دراسة الاعلام و الاسماء (**Onomastique**)التي تتفرع منها مجلات علمية أخرى مثل الأرونوميا (**Oronymie**)، التي تهتم بدراسة أسماء الجبال، والهيدرونيميا(**Hydronymie**)المهتمة بدراسة أسماء المجاري والمسطحات المائية، والأدونونيميا

(**Odonymie**)التي تدرس أسماء الطرق والازقة والشوارع، والانوماستيك (**Onomastique**) بدورها تعتبر فرعا من الدراسات اللغوية[10].

الأنثروبونيميا:(**Anthroponymie**) هي علم دراسة الاعلام البشرية، حيث تدرس أسماء الاشخاص أو الالقاب، حقيقية كانت أو وهمية[11]

المواقعية والاسم:

وهي علم لساني يختص بدراسة أسماء الاماكن واصلها وأصل التحولات والتطورات التي مرت بها عبر الزمن، حسب تعبير ألبرت دوزا كما اورده عطوي ابراهيم" ان المواقعية تمكننا من فهم الروح الشعبية وميولها سواء كانت أسطورية أم حقيقتا، وهي نظام متعلق باللسانيات التي تعد علما لغويا ودراسة تاريخية مقارنة للغات كونها عبارة عن وصف وشرح للألفاظ التي تساعد على تعيين جوانب الطبيعية في علاقاتها مع الكيان الانساني[12]

قام الانسان منذ القدم بتسمية كل ما يحط به من أماكن و جعل لها اسما حيث ما حل، قصد تعين خطوط سيرهم لتسهل عليهم اتجاهاتهم وتنقلهم[13] مع حرصهم على تغير الاسماء لإدراك الفرق بين الاماكن ، حيث تعكس التسمية بوصفها منجا اجتماعيا بعض الابعاد الاجتماعية التي تحرك حياة المجتمع ،في حين تطهر النماذج التسمية لكل حضارة خصوصياتها وقيمتها الاجتماعية تماما، كما تجسد أنماطها الثقافية وأعرافها وطقوسها وتقاليدها التي تنفرد بها عن غيرها، والاسماء تعكس صورة الزمان والمكان والتكوين الاجتماعي والثقافي والمنظور العقلي، كما تظهر الاسماء أبعاد الثقافة والحضارة وتصبغها بصبغتها وتطبعها بطابعها[14].

من المواقعية الفرنسية الى المواقعية الجزائرية.

قامت السلطات الفرنسية خلال الحقبة الاستعمارية للجزائر بقرار من الادارة الفرنسية منح المدينة الجزائرية الصورة الاوروبية ، من خلال تسمية شوارعها وأحيائها، بأسماء فرنسية ، قصد فرنسة المكان والتحكم في المجال

هذا ما نلمسه من خلال واقع تسمية الأحياء والشوارع بأسمائها القديمة الفرنسية وفي بعض الأحيان أسماء قديمة تعود الى عهود قديمة، تحمل أسماء ضباط عسكرين ، وكتابّ، ووزراء، وقدسين، وأمراء، أما التسمية الجديدة فهي وليدة ما بعد الاستقلال، فقد قامت السلطات الجزائرية بعد الاستقلال الى اعادة تسمية هذه الأحياء والشوارع في كافة ربوع الوطن ، بأسماء الشهداء والمجاهدين . من عسكرين ،ووزراء، ومحامين، وأطباء...

حالة مواقعيه المدينة الجزائرية:

يهتم البحث الميداني بدراسة الأسماء الجغرافية من خلال جمعه للمعلومات المتعلقة بالأسماء الطبغرافية عن طريق إجراء مقابلات شخصية مع عدد من المبحوثين الذين يستعملون الأسماء المحلية بصفة منتظمة في لغتهم اليومية .وهو يهتم أيضاً بالصيغ المكتوبة للأسماء، مثل المستعملة منها على الإشارات وفي السجلات المحلية .والبحث الميداني الذي يقوم به أفراد ذوو دراية هو الأسلوب الأمثل للحصول على معلومات عن الاستعمالات المحلية للأسماء الجغرافية وتطبيقاته، وفي الواقع أن هذا الأسلوب هو الوسيلة الوحيدة التي تمكِّن من الحصول على بعض المعلومات المتعلقة بالأسماء الطبغرافية، لا سيما المعلومات التي تشمل بيانات لغوية، و الاختلافات بين الأسماء الرسمية المقررة والأسماء المستعملة محليا. وللبحث في ذلك يقوم الباحث بالاستعانة على مجموعة من التقنيات والادوات المنهجية ، منها اجراء مقابلات مع الافراد عن طريق تحضير دليلا للمقابلة ، واستخدام الخرائط والصور الجوية، والاستعانة بأجهزة للتسجيل على أشرطة خلال المقابلات، لكن استخدامها يستلزم الدراسة والتحضير الدقيقين لأن المبحوثين قد يكونون أقل ارتياحاً في ظل هذه الظروف، غير أن تسجيلات الأسماء على الأشرطة يمكن أن تكون مفيدة جداً في حالات معيّنة، منها مثلاً الحالات التي لا يكون فيها للّغة المحلية شكل مكتوب موحد، أو عند وجود لهجات محلية، أو عند احتمال استخدام المعلومات لاحقاً في حفظ اللغات، كما يمكن

الاستعانة بخدمات المساحين وأخصائي رسم الخرائط والجغرافيين واللغويين وأي خبراء آخرين و السلطات المحلية والإقليمية المختصة بالأسماء الجغرافية ويمكن لأي شخص له دراية بالأسماء أن يساعد الباحث على إنجاز عمله.

يتطلب العمل الميداني اتباع مراحل معينة في اجراء عملية جمع المعلومات المتعلقة بالأسماء وهي كالتالي:

الأعمال التحضيرية السابقة للعمل الميداني:

عمد المسؤولون عن المشروع الى تكوين فريق البحث الذي كان يتكون من عشرون باحثا جلهم من ذوي خبرة ميدانية وتكوين أكاديمي في مجال الانثروبولوجيا وعلم اللهجات ومختصين في دراسة الاسماء، حيث تم تقسيم المجموعة الى عشرة فرق أي كل فرقة تحتوي على باحثين ، بسبب شاسعة المدينة وكثرة الاحياء و المدة الزمنية المحدودة للمشروع، هذا ما جعل من المسؤولين القيام بإجراء أعمال التحضيرية في المكتب قبل الشروع في المهام الميدانية كونها مرحلة هامة من مراحل العمل الميداني.

حيث شملت الأعمال التحضيرية السابقة للعمل الميداني ما يلي:

1- تم تحديد المسائل والمشاكل المعروفة فيما يتعلق بالأسماء من قبل الخبراء

2- تحديد المناطق والاحياء والشوارع مع تقسيم المناطق على الباحثين

3- تجميع لوازم التغطية المناسبة من الخرائط والصور الجوية، وغير ذلك من المواد واللوازم التي قد يحتاج إليها الباحث الميداني

4- تقديم بعض التوجيهات والتعليمات لتوجيه العمل الميداني

5- التأكيد مع الباحث على أن يتحقق من جميع التسميات في المنطقة المشمولة بالخريطة، أي من الأسماء وتهجئتها وتطبيقاتها لدى السكان المحليين.

الخطوات الميدانية المتبعة في استقصاء الاسماء

أ: إعداد خريطة العمل الميداني ومجموعة من التعليمات في مكتب الدعم الوظيفي لمساعدة الباحث الميداني.

ب: الذهاب إلى الميدان.

ج: اجراء اتصالات أوّلية قصد التعرف على السكان المحليين وعلى المنطقة

د:اجراء مقابلات مع المبحوثين في الميدان

هـ: اعداد التقارير الميدانية والتحقق من إتمام العمل

و: تقديم المعلومات الميدانية الى المكلف بمكتب تسجيل المعلومات على الحاسوب

مع التركيز والتأكد من الاسماء المسمّاة على الخريطة، و الأسماء التي أصبح استعمالها مهجوراً و أسماء المعالم التي لم تعد موجودة ،و الأسماء التي لها صلات وطنية وتاريخية الأسماء ذات المغزى التاريخي.

كما ينبغي التأكيد على تحديد الحالات التي يوجد فيها تباين بين الأسماء الواردة في الخرائط الحكومية الأساسية والمنشورات الأخرى، مع جمع معلومات محلية للمساعدة على تسوية مواضع الاختلاف من خلال:

أ – تحديد ما إن كانت هناك أماكن ومعالم ومناطق غير مسماة في الخرائط والمنشورات المتاحة الأخرى

ولكنها مسماة محليا

ب – بيان حدود أو نطاقات المعالم المسماة الكبيرة وربما الأصعب تحديداً، حسب الاستعمال المحلي

ج– توضيح استعمال المصطلحات العامة ومعانيها في حال عدم وضوحها

د – تحديد الأسماء المكررة داخل المنطقة وتسجيلها، وبيان كيفية التمييز بينها في المحادثات اليومية

هـ – تسجيل اللغات ذات الصلة ومعاني الأسماء

و –تحديد وتسجيل الصيغ المكتوبة والمستعملة محلياً للأسماء الموجودة على اللافتات وفي السجلات.

الاستقصاء الميداني:

الهدف من العمل الميداني بخصوص الأسماء الطبغرافية هو معرفة كيفية استعمال السكان المحليين لتلك الأسماء لدى الإشارة إلى عناصر بيئتهم، وتشمل هذه العملية التحقق من الأسماء وتطبيقاتها المنشورة فعلاً في الخرائط، وجمع الأسماء المستعملة محلياً غير الموجودة في الخرائط عن طريق :

- المقابلة والحوار مع أشخاص لا يعرفهم الباحث عادة حيث تقتضي المقابلات الشخصية التحلي باللباقة وتوضيح الهدف من الزيارة و تبين الغرض من ذلك وأنه ليس له أية صلة بالبيع أو الضرائب او السكن ...و مع تجاوزه المجاملات والثرثرة، والتأكد من مدى صحة أقوال المبحوثين.والاخذ بعين الاعتبار كل الأسماء المحلية مع عدم اعتبارها تافهة وغير مهمة، بالمقارنة بالأسماء المدرجة في الخريطة الرسمية .
- تحديد الصيغ المكتوبة للأسماء مع تحديد الصلة بين الأسماء والكيانات الجغرافية التي تشير إليها
- تحديد هوية وموقع المكان أو المعلم أو المنطقة التي ينطبق عليها كل اسم من الأسماء
- وصف نطاق كل معلم من المعالم المسماة
- إيضاح العلاقات الهرمية عند اللزوم، بين الكيانات المسماة المترابطة) مثل القمة والجبل الذي تعلوه
- تسجيل الأسماء بلغات مختلفة
- تسجيل الأسماء باللغات غير المكتوبة
- الاتصال باللجان المحلية أو السلطات الإقليمية المعنية بالأسماء

استعراض المعلومات الميدانية:

على الرغم من أن أهداف العمل الميداني بسيطة ومباشرة، فإن الحاصل أن الإجراءات والأساليب المستخدمة في الميدان يمكن أن تتباين تبايناً كبيراً، فهناك أحوال كثيرة تؤثر على العمل الميداني، والحصول على معلومات محددة وأحياناً معقدة، عن الأسماء الطبغرافية من

السكان المحليين المختلفين من حيث المواقف الثقافية والطبائع الشخصية واللغات أمر يقتضي التحلي بالمرونة في الإجراءات والأساليب المستخدمة، والنتيجة النهائية للعملية الميدانية هي جمع تقارير ميدانية وخرائط عمل مزودة بشروح، مع المواد الأخرى المتصلة بالأسماء الطبغرافية لمنطقة محددة وتقدم هذه المواد، في صورة ملفات حاسوبية قدر المستطاع، إلى مكتب الدعم الوظيفي من أجل تجهيزها.

ويجري استعراض وتقييم المواد الميدانية لتحديد المدى النسبي لاكتمالها ودقتها وتقيدها بالمعايير، وبعد ذلك يتم تجهيز الأسماء وتطبيقاتها على هيئة مجموعات بأحجام يسهل التعامل معها حيث تكون مرتبة حسب المساحات المختلفة على الصحائف الخرائطية أو حسب أنواع المعالم ثم يتم الإبلاغ عنها، وفقاً للإجراءات المكتبية المعمول بها، كي تنظر فيها السلطة المختصة بالأسماء وبعد إتمام الأعمال التحضيرية السابقة للعمل الميداني، تُجمّع خرائط العمل وإسقاطات المعلومات على الخرائط، ونماذج التقارير وغيرها من المواد بغية تيسير استعمالها.

المصدر التاريخي: عرفت مدينة جيجل التاريخية عدة أسماء قديما وحديثا منها : "إقيلقيلي" و"إجيلجيلي" و" جيجيلي"و"جيجيليو" و"جيجري، وأخيرا جيجل الاسلامية [15]، ومن بين أهم القبائل المكونة للمدينة جيجل نذكر ما يلي:

قبيلة الزيميز : تتمركز على مشارف جيجل	**Zimizes**
قبيلة السلاسيين : تتمركز على الجهة الشرقية	**Salassi**
قبيلة الاكوتمانيين : منطقة تاسدان	**Acutamaie**
قبيلة الخيتوا بالجنوب	**Khitouae**
قبيلتي المكلكوبيين والمخوريين	**Makhores et Malkoutbi**
قبيلة الجيبالوسيين	**Gebalousii**
قبيلة البافاريين	**Bavares**
قبيلة الكيرينين "كيرينا"[16]	**Kirina**

وبعد قراءتنا لكتاب علي خلاصي الموسوم بـ" جيجل تاريخ وحضارة" ارتأينا الى تقديم بعض الامثلة عن تسمية مواقع الاماكن التي وردت بالكتاب حول مدينة جيجل نقدمها هنا باختصار من أجل توضيح أهمية استخدام المنهج الانثروبونيمي في مثل هذه الدراسات

جدول يمثل تسمية الاماكن لمدينة جيجل

Nouvelles dénominations التسمية الجديدة	Anciennes dénominations التسمية القديمة
La Madeleinne , Aramobore	تازة
جيجل	إيجيجيلي
زيامة	شوبا أو اكيريونيم
القنار: مصب وادي النيل 15 كلم عن مدينة جيجل	النيليم مصب وادي النيل
المرجة	توكه: واطلق عليها اسم "بلين" ، "أوبيوم" ، ثم "أوبيوم توكه"
جميلة	كويكول
بني ياجيس	تمسقيدة
عين الاوقات بمدينة جميلة	عين الصلاة
جبل أم ازغيطان: يعتقد انه اسم اخت يما قورايا	جبل مزغطان
زونداي	جبل زنداوي
الام أجانة	أجانة

تاماوس	ملوسة
سيدي عبد الله " نسبة الى المرابط سيدي عبد الله مول الشقفة	مول الشقفة
هوران Horin	برج دوكان
كافالو	العوانة
قورايا	قونوقو
فيكيم أد	جيجل
القصر	بازيليكوم
العين الكبيرة	صاتافيس

فالطوبونيميا بما توفره من معلومات تعتبر مصدرا من مصادر الكتابة الانثروبولوجية والتاريخية لما تحمله من معلومات ومعطيات قادرة على إنارة الباحث في فهمه وتفسيره لتلك النصوص والمعطيات التي تظل غامضة أو متضاربة في ما تحمله من معاني ودلالات التي وردت فيها معرفة أصول وجذور العديد من الأعلام الجغرافية والبشرية التي لم يبقي منها سوى أسماءها التي لازالت مرتبطة بالعديد من الامكنة والمواقع، وفي الاخير ما يمكن أن نقوله عن الدراسات الأنثروبونيميا التي تستند على العمل الميداني أنها تقدم لنا معطيات بمثابة " وثيقة تاريخية " بمفهومها الشامل الذي يتجاوز الوثيقة المكتوبة الى الوثيقة الشفوية.

الهوامش

[1] سلطان عبد الله المعاني، مفردات قديمة في السياق الحضاري، دار ورد للنشر والتوزيع،ط1،2005ص157

[2] نفسه ص157

[3] Atoui Brahim, Toponymie et espace en Algérie, Institut national de cartographie, Alger 2005, p45

[4] Toponymie Française, Wikipédia

[5] Atoui Brahim, Toponymie Et Espace En Algérie, Institut national de cartographie, Alger, 2005, p07-08

[6] سهيل ادريس، قاموس المنهل، دار الاداب،ط31 ، بيروت، لبنان، 2003، ص1208

[7] Atoui Brahim, opcit,33

[8] Ibid, p11

[9] Ibid, p139

[10] محمد أقديم، التحولات السوسيو تاريخية في منطقة الاطلس الكبير، منشورات دار الامان، 2016، الرباط، ص54

[11] نفسه، ص55

[12] Ibid, p33

[13] Ibid, p194

[14] هدي جباس، الاسماء والتسمية، منشورات المركز الوطني للبحث في الانثروبولوجية الاجتماعية والثقافية، وهران، 2005، ص130

[15] علي خلاصي، جيجل تاريخ وحضارة، منشورات الحضارة، الجزائر، 2011، ص14

[16] نفسه، ص 89